مما يرى ويسمع فى الطريق

فى مطايا المواصلات العامة مضايقات لولا جميل الصبر لاختنق بها أحرار النفوس . وفى طليعة المضايقات ما هو فضلة الكرم والجود مما لا يزال أولياء الأمر فى هذه المطايا يتعهدون به جمهورا أظهر صفاته أنه مسماح كريم ، وفى المنزلة الثانية بعد الطليعة ما هو فضلة الذوق المفقود ، مما لا تزال أشباح فى صور بنى آدم تتعهد به هذا الجمهور نفسه .

أصابتنى الإنفلونزا مرتين فى شهر نوفمبر ، ولابد أن تكون قد أصابت عديدا سواى من أولئك الرفاق الذين يتجاورون على ظهور المطايا العامة فى الصباح وفى المساء كما يتجاور سردين العلب ، ولا أعرف ان هذه الانفلونزا استطاعت أن تنفذ الى رأسى وأنفى وصدرى وجملة مفاصلى إلا من طريق واحدة لا طريق غيرها ، هى هذا التيار من الهواء يدفعه الى الأبدان فراغ الزجاج فى هذه المطايا من السيارات وهذه الركائب من الترام كأنه الرصاص منطلقا من البندقيات .

فهل يرضيكم يأهل المروءة وجمع الفلوس أن تحملنا مطاياكم سالمين غانمين ثم لا تحطنا عن ظهورها قبل أن ترشح الأنوف وتسيل الدموع وتدب الوعكة فى الأجسام ويمشى الداء فى العظام وينشط السعال وتسوء الحال ؟

وأقول إنى لم أخف على نفسى كربا من هذه الكروب كما خفته على طفل كانت أمه تنتظر به إقبال السيارة فى إحدى محطاتها .

كان ذلك فى شهر يوليه حين وقدة الحر وشدة وهجه وتلهبه ، والشمس ترسل ألسنة من النار يتفلق بها الصخر ويذوب تحتها الحديد ، وكانت أم الطفل به حيرى وعليه ولهانة ، وكان الطفل كأنه العصفور فى قفص من الجمر ، وكان المكان مكشوفا وظل كل شىء تحت قدميه .

ولم تشأ المطية المباركة أن تظهر على مد البصر الا بعد أن مضى للطفل وأمه ولغيرهما من المنتظرين نصف ساعة ، كانوا فيها كأهل القيامة فى وقت الحساب يتمنون الانصراف من هذه النار ولو إلى نار أخرى ! . .

ولم أعلم أى شر أصاب هـذا الطفل بعد أن رأيته وهو يذوى فى حر الشمس كما تذوى الورقة الخضراء فى النـار المشتعلة ، ولكنى أعلم أن أقل مما عاناه يصيب مثله بشر عظيم ، الا أن يتداركه الله بلطفه .

وفى الليلة الظلماء ، فى المكان العريان ، فى الشتاء الذى يطعنك برده بأطراف المسامير وأذناب العقارب بعد نصف الليل مثلا ، والجو كأنه بحر أصله فى السماء ومصبه فى الأرض ، فى هذه الليلة وفى هذا المكان وتحت هذا الجو يقف جماعة من الناس فى انتظار السيد السند الذى اسمه الترام أو السيدة الوقورة التى اسمها سيارة كذا أو سيارة كذا ، أفتظنهم مدجلين ينتظرون البـدر ، أفتحسبهم مجدبين يرتقبون الغيث ، أم هـل تعلم أنهم فى موقفهم تتوزع نفوسهم بين الخوف والرجاء حتى يأتيهم الفرج فيفك إسـارهم ؟ كلا : فهؤلاء جميعا أسعد منهم حالا ! إنهم ينتظرون شيئا أروى من المـاء ، وأهدى من بدر السماء ، وأحب من حرية الطلقاء ، ذلك مع الاحترام وحفظ الألقاب ، هو السيد الترام أو السيدة السيارة ! . ثم حسبهم أن يتفضل بالحضور هذا السيد أو هـذه السيدة ، ولا بأس بعد ذلك أن تتخذ النزلة الشعبية مقرها فى الصدور وأن يختار الالتهاب مسكنه فى الرئات أو الكلى أو الأكباد أو المعدات والمصارين أو أية ناحية أخرى من هذه الأجسام المباحة .

فهل يعجبكم يا أصحاب الأرباح ، ويا أهل السماح ، أن تتركونا نهبا لهذا الدلال ؟

هذه سيدة يشهد احتشامها وانسدال ملابسها عليها ، أنها من بيت كريم ، تأخذ بيدها طفلا فى نحو السادسة من عمره ، وتتبعها خادم تحمل طفلا آخر رضيعا ، وهى كغيرها من الناس تنتظر الترام ؟

وهذا شاب لو قست الأرض بطوله لأعطاك منها قصبة زراعية ، ولو قدرت الحائط بعرضه لوفاك منه متر مكعب ، جيـد الثياب ، نظيف الظاهر ، متخم بالذهب وكريم الجواهر ، سمهرى خطار كأنه أطول الرماح ، مشرق نوار كأنه قطعة من فلق الصباح .

بربك لو أنك رأيته هكذا أكنت تصدق أنه جدار من تبن وطين ، أو عمود من رخام وحديد ، أو أن ضميره ميت وهو تابوته ، أو أن قلبه شق وهو نبوته !

لكن الترام أقبل فلم تكد السيدة تخطو لتركبه ومعها طفلها وخادمها حتى دفعها بذراعيه ، ثم مرق من بين الواقفين كأنه فزع جميزة امتلخته ريح عاتية ، فارتمى لا يحس أى مصاب من الهلاك يسقط به فوق من يسقط عليه .

ولم تطل بالناظرين دهشة ما رأوا ، فقد كشف عنه لسانه ، فلمحوا أنه نخلة ليس فيها غير القحوف والأفلاق ، أو أنه هو الانسان الميكانيكى لا يغنيه جمود الصورة عن أدب النفس وشرف الأخلاق .

غير أن الخلق المصرى الكريم ضمين ألا يزيد عدد أمثاله فى مصر على عدد أفراس البحر فى حديقة الحيوانات .

* * *

مرّ بى وأنا سائر فى الطريق شاب متمشيخ ، يلبس قفطانا من الحرير الهفهاف شديد البياض ، ويشد على وسطه حزاما من الحرير المصقول فاقع الصفار ، ويرخى فوقهما جبة من نسج القفطان ولونه ، ويطبق على رأسه عمة لا تعرف نسبها إذا سألتها أن تنتسب إلى قطر من الأقطار أو جنس من الناس ، وإن كان أصدق ما يقال فيها وفى صاحبها أنها جرة مقلوبة تحتها راية منصوبة ، أو أنه هو أبو قردان يحمل فى الطريق طشتا تحته إبريق ! ...

وهب أنك أنت الذى مر بك هذا الشاب فى هذه الصورة ، فهل كنت تستطيع أن تسكت ؟ إننى أنا كذلك وجدت السكوت فى هذا المقام من تراب لا من ذهب ، فلم أبطئ أن ناديته : يا شيخ حموده ، ولم يكذبنى الغيب فاذا هو الشيخ حموده كما ناديته ، ثم لم يلبث إلا أن التفت ليرى من يناديه ، وأقبل يصافحنى وليس به شىء من التحرز الذى يكون بين غير المتعارفين ! ... قلت : كيف الحال يا شيخ حموده ؟

قال : الدنيا حرب ، روسيا ضربت لفلندا ، والرئيس زورفلت طلب من مصر قماشا لقلوع المراكب ! ... صدقنى يابيك أنا رأيت الخيمية بعينى نازلين شغل فى القماش المطلوب ! ... وحكومتنا أمرت بجمع المغازل من أيدى الفلاحين لأن انجلترا اشترطت ألا تشترى القطن من غير مغازله ! ...

قلت : أنت سياسى كبير يا شيخ حموده !

قال : سياسى وأهل علم ومعنى وأعمل شعر على قد الحال ، وكل ده ربانى من غير مدرسة ولا أزهر حتى ولا أليف بيه ! ...

قلت : وما هى الصنعة الشريفة الدائمة ؟

قال : يعنى صنعة أكل العيش ؟ حانوتى يا بيك .

وكانت السماء غائمة ، والمطر مستهلا ، والبرد مقبلا ، فلم أشأ أن يدركنى فزع التشاؤم بجوابه قبل أن أسأله : متى يكون الشتاء . أما هو فاقتحم الأفق بعينيه ثم قال : نعمل إيه ؟ أهو اللى بيقسمه ربنا بنلبسه فى وقته ، ده كله نضله خير أسيادنا اللى زى سعادتك .

وبعد ذلك مضى يشق الهواء بذراعيه ، فقلت لنفسى : إن الآجال بيد الله .

وبعد : فمن الجائز ما دام الأحياء يموتون أن تكون الحانوتية حرفة مألوفة ، ولكن أيكون من الجائز لهذا وأمثاله أن يقيموا الدليل من أنفسهم على الإسراف فى فساد الذوق العام ؟

باقة من الحكم

— رب قارض للأعراض ، وعرضه بين شق المقراض

— فى الغمر تستوى الأعماق .

— صبر الحازم تجلد ، وصبر العاجز تبلد .

— الثقيل جبل ، إذا تلطف سقط .

— المتحيز لا يميز .

— اثنان فى النار دنيا وأخرى : الحاقد والحاسد .

— التاجر فى حانوته بين يدى الرازق ، فلا ينازع ولا ينازق .

شوقى